أيام فى باكستان

الطائرة « الجامبو » ٧٤٧ مثل الأتوبيس الضخم . الناس يجلسون صفوفاً على المقاعد ، أو يروحون ويجيئون فى الممرات ، والمضيفات ينتقلن باستمرار لتلبية الطلبات التى لا تنقطع ، والجو فيه طنين ، لا يرتفع إلى درجة الضجيج ولا ينخفض بحيث تستطيع ألا تلتفت إليه . جسم الطائرة كالبطن المنتفخ لحيوان ضخم تزحف فيها الديدان . الخطوط الانسيابية اختفت ، والألوان أصبحت باهتة ، والإحساس بأنك تحلق فوق السحاب وتشق الفضاء العريض كالصاروخ الهادئ تلاشى والألفة مع مجموعة صغيرة من المسافرين تحولت إلى مجرد تجمع من الأجساد والأرقام لا تعنى شيئاً . التكنولوجية الحديثة تمحو تمايز الأشياء ، والناس ، وتحولها إلى مجرد أعداد وأنماط موحدة .

فى المطار أحسست فجأة بدفء الإنسان يعود . الضابط الأسمر استقبلنى بابتسامة بيضاء وبعينين سوداوين فيهما بريق وهو يقلب صفحات جواز السفر : « من مصر » . « نعم » . « تتحدث اللغة العربية » نطق الجملة بطريقة خاصة كأنه يحب الكلمات التى تخرج من بين شفتيه ويحرص على إعطائها حقها ، على استطعامها قبل أن تتلاشى وتموت .

« أتتحدث باللغة العربية » ؟

« إذن أنت أخ » أغلق الحقائب بنفسه وسلمنى الجواز ثم أشار إلى بالمرور «البلاد بلادكم » أحسست بكآبة الطائرة تتبخر . حملت حقائبى وخرجت من باب المطار . كانت أضواء الفجر تطارد بقايا الظلام عند الأفق البعيد . الشوارع صامتة خالية من الحركة ، ما عدا بعض سيارات الأجرة تقف فى جمود بارد وإلى جوارها عدد من السائقين

باكستان والصين .. صداقة الأضداد

ينفضون بقايا النوم من عيونهم .

تقدم نحوى رجل قصير القامة ، أسمر الوجه ، شائب الشعر ورمقنى بنظرة صارمة .

« د . شريف . . »

« نعم . أنا » .

مد يده وسلم على . وجهه ما زال صارماً تبدو على كل حركة من حركاته أنه يقوم بمهمة خطيرة تستلزم أن يبدو جاداً .

« أنا " أحمد بشير " من الجهاز القومى لتنظيم الأسرة . السيارة فى انتظارك » .

حمل عنى السائق حقائبى ودلفنا داخل السيارة الفارهة . انطلقت مسرعة بين صفوف البيوت التى ما زالت تغط فى النوم .

« حجزنا لك فى فندق إمبريال » .

« كم أجرة الحجرة ؟ »

« ٣٥ روبية فى اليوم » .

« هذا كثير . ليس معى نقود تكفى » .

بدا على قسمات وجهه ما يشبه التقلص الخفيف أضاف جموداً إلى جمودها السابق .

« إذن سنذهب إلى فندق " جاربيس " . الأجر هناك عشرون روبية فى اليوم » .

« هذا أنسب » .

خاطب السائق بكلمات بدت إلى كحشرجة تخلو من المقاطع المحددة . رأيته من الخلف يومئ برأسه العريض المسطح يشبه رءوس أهل الشام .

كراتشى مدينة ساحلية تتقلت بين أطرافها المترامية طوال الأسبوع الذى قضيته هناك . فى يوم من الأيام قادتنى خطواتى إلى حيث يتنزه

سكان المدينة بجوار البحر : مساحات من الرمال المخلوطة بالطمى ؛ مساحات رمادية فيها لزوجة مرهقة تنغرس فيها الأقدام ؛ وسور عريض من الأسمنت يجلس عليه الناس ، وباعة جائلون يبيعون الحبوب المحمصة الحريفة ؛ وخيام ممزقة تحتها بعض الموائد الخشبية ومقاعد من القش مثل مقاهى الريف عندنا ؛ وأراجيح للأطفال ؛ ورجل أسمر ظهره للعمود ويعد حصيلة اليوم كأنه يحسب ماذا يمكن أن يشتريه لأطفاله عند العودة ؛ وألعاب نارية فيها تعاسة الفقر ؛ وبحر لونه خليط من القار الأسود والمساحات الرمادية تبدو حزينة تحت السماء المغطاة بالسحب . تذكرت جمال البحر الفيروزى على شواطئ الشمال فى بلادنا ، البحر المتوسط كالجوهرة الزرقاء تمتد إلى الأفق وفوقها أشرعة الصيد البيضاء .

« البورى بزار » . . . سوق الأقمشة ، والملابس الحريرية والمناديل وأفواج من الناس يسيرون عبر الحوارى الضيقة يرتدون ألوان « السارى » التى تخطف البصر ، ألوان الشرق وسحره . وفى الحانوت الضيق جلس التاجر ، جسد كالعصا الرفيعة يعرض مناديله ، مناديل من الحرير رسمت عليها الطيور ، والأشجار والزهور ، بمادة كالشمع يبسطها على القماش من أنبوبة صغيرة بيد الفنان الحاذق . دلفت عبر المدخل الضيق وألقيت عليه السلام بالعربية . رمقنى بنظرة حادة من تحت حاجبيه الأسودين الكثيفين . أشار إلى اثنين من الأمريكيين جلسا أمامه وهو يستعرض بضاعته فوق البساط المزركش بألف لون وقال :

« انتظر حتى ينصرفا . فأنت أخ وأنا أريد أن أعطيك سعراً خاصاً » .

هنا اللغة العربية مفتاح القلوب وكلمات « السلام عليكم » كالتعويذة السحرية تثير بريقاً حاراً فى العيون ، وتصنع المعجزات . إنها تجعل كل شىء سهلا ميسوراً .

جلست فوق السجاد السميك أحتسى زجاجة الكوكا كولا الكبيرة

باكستان : ميناء كراتشي

المثلجة التى أحضرها إلى صبى صغير وقف أمامى يتأملنى بنظرة ثابتة جادة كأنه يدرسنى على المهل . بعد قليل فرغ الرجل من زبائنه والتفت إلى .

« أنت مصرى ؟ »

« نعم » .

« ومسلم ؟ »

« ومسلم » .

« نحن أيضاً مسلمون ، كلنا مسلمون هنا فى باكستان » . وأحسست بنغمة من المرارة فى صوته وكلماته ، تلك المرارة التى أصبحت قادراً على اكتشافها منذ أن وطئت أقدامى أرض باكستان ، تختبئ فى ثنايا الأحاديث ، وتتخلل مقاطع الألفاظ مهما كانت عادية . . . مرارة الهزيمة . قرأت فى عينيه ذلك القلق الحائر الذى ألمحه فى كل العيون ، قلق الهزيمة يضطرب فى الأعماق ويولد التساؤل حول المستقبل ، والشك فى كل شىء .

ساد الصمت لحظة طويلة ، ثم قال :

« إننا لانريد أن نشغلك بكلامنا هذا . فأنت أتيت لتشترى وشاحاً من الحرير لا لتستمع إلينا . ولكن أريد أن أقول لك شيئاً . الهزيمة فتحت عيوننا على أشياء كثيرة والناس ليسوا على استعداد لأن يعيشوا مغمضى العيون كما عاشوا فى الماضى . ومع الأيام فإن الناس سيأخذون مصيرهم بين أيديهم ليتصرفوا فيه بدلا من أن يتركوا حفنة من الناس تتصرف كما تريد » .

خرجت من المحل أحمل وشاحين من الحرير لزوجتى ولأمى ، وأحمل معى صراعاً تجدد بين بين الأمل واليأس .

• • •

لا أعرف حتى الآن لماذا أحسست أن لهذه البلاد سحراً خاصاً ؟ أهو بسبب تلك العاصفة من الأفكار التى تضطرم فى العقول وتنفجر فى

باكستان : صلاة العيد

الكلمات؟ أم بسبب تلك الحرارة الغريبة التي يستقبلك بها الناس وكأن مجرد وجودك يضفي عليهم سعادة لم يألفوها من قبل ، فيلتفون حولك ، تبرق عيونهم بحيوية متجددة وتلمع الأسنان البيضاء في ابتسامة حلوة ، يلتقطون كلماتك ، ويعرضون عليك خدماتهم ، ويهتمون براحتك وبكل التفاصيل الصغيرة التي تخص إقامتك . السيارة تأتيك من الفجر إذا لزم الأمر ، وطلباتك مجابة في خضات ومع ذلك يعتذرون في كل لحظة لأنهم لم يقوموا بالمزيد .

مرافقي أحمد بشير . . . الرجل الصارم الصامت الذي كان يضحي حتى بأيام عطلته ليرافقني في كل مكان والذي شعرت بسعادة خاصة عندما تمكنت بعد يومين من أن أجعله يضحك بصوت مسموع . عن طريقه اكتشفت أن « المانجو » في باكستان فاكهة لامثيل لها في العالم ، كتلة من الحلاوة تسيل في الفم ، وأن العنب ذا اللون الأصفر حباته مثل « بز العنزة » يجعلك تحتار بينه وبين المانجو ، وأنه يوجد نوع من « الأيس كريم » اسمه « كوفلي » هو أطعم ما تذوقته حتى الآن ، فتدهش لماذا يتميز « الأيسكريم » في باكستان بالذات دون سائر البلاد .

وهو الذي قادني في يوم الاستقلال إلى زيارة ضريح « محمد علي جناح » . ضريح أبيض تراه من بعيد فوق ربوة تطل على كراتشي ويتصل إليها عن طريق حدائق مدرجة تتخللها الزهور والنافورات وأحراض من الفسيفساء الزرقاء . الضريح مبني من الرخام في شكل مربع وترتفع فوقه قبة عالية ، وكل ضلع من الأضلاع يتخلله قوس عال مفتوح ، تطل منه على مئات الدرجات البيضاء التي تنحدر نحو الحدائق ، وعلى مدينة كراتشي ، وعلى البحر الرمادي يبدو قاتماً من بعيد ، وتأتيك عبره لفحات من الهواء لا تحس بها في أي مكان آخر من المدينة .

ولكن في هذا اليوم كان يغطي الحدائق ، والمدرجات المتصاعدة ،

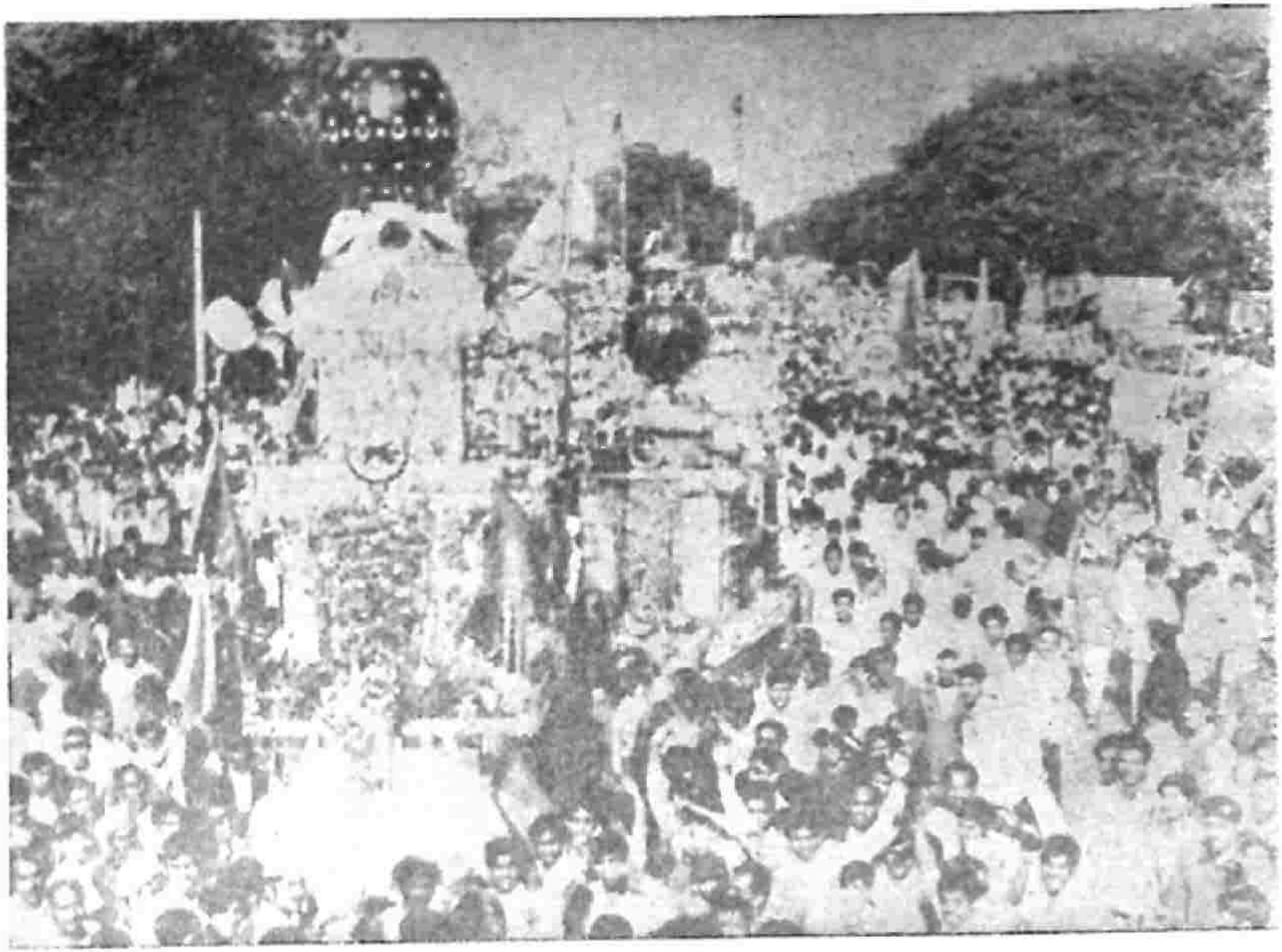

باكستان : موكب العيد

والمساحات البيضاء المحيطة بالضريح بساط أسود يكون من آلاف الأجساد المتلاصقة ، تلاحمت حتى أصبحت نسيجاً كثيفاً لم يترك ثغرة واحدة أو فجوة . وفوق الأكتاف رفعت اللافتات البيضاء ، وفوق الأعناق ارتفعت أجساد الخطباء ؛ وفى الفضاء العريض ترددت الهتافات كقصف الرعد تعلو وتهبط ؛ وتعلو من جديد وكأن قوة خفية تصر على إذكائها .

مررنا بصعوبة بين الأجسام المتلاحمة حتى وصلنا إلى الضريح ؛ وحوله اصطفت طوابير دائرية من الفتيان والفتيات وعلى أحجاره المرمرية المصقولة أقواس الزهور والورد يغلب عليها اللون الأبيض والبرتقالى .

رفعت رأسى إلى السقف . رأيت نجفة مصنوعة من الذهب ومنحوتة بدقة تتدلى من داخل القبة العالية على سلسلة ذهبية طويلة . شىء ما فى دقة الصنع وفى الفخامة المتناهية تشعرك بالبذخ أو بالكرم الذى ينتمى إلى عصور مضت ، عصور كان يصنع فيها الأرقاء والعبيد التحف لأسيادهم .

لاحظ مرافقى حركة عينى المتأملة فقال :

« هدية من حكومة جمهورية الصين الشعبية » .

وأحمد بشير هو الذى أعطانى خريطة المدينة حتى أستطيع أن أتجول وحدى عندما صممت على أن يأخذ قسطاً من الراحة ، وأقنعته أننى أستطيع أن أتصرف وحدى بدون أن أفقد طريقى .

وهكذا رأيت جامع وزارة الدفاع . إنه بناء دائرى ضخم رصع بقطع من الحجر تلمع كالألماس وتتخلل جدرانه آلاف الفتحات المغطاة بالزجاج لونه كالمرمر . الجامع عبارة عن قبة عملاقة ترتكز على الأرض ، داخلها صحن دائرى يسع سبعة آلاف من المصلين . أرضه مغطاة ببساط سميك

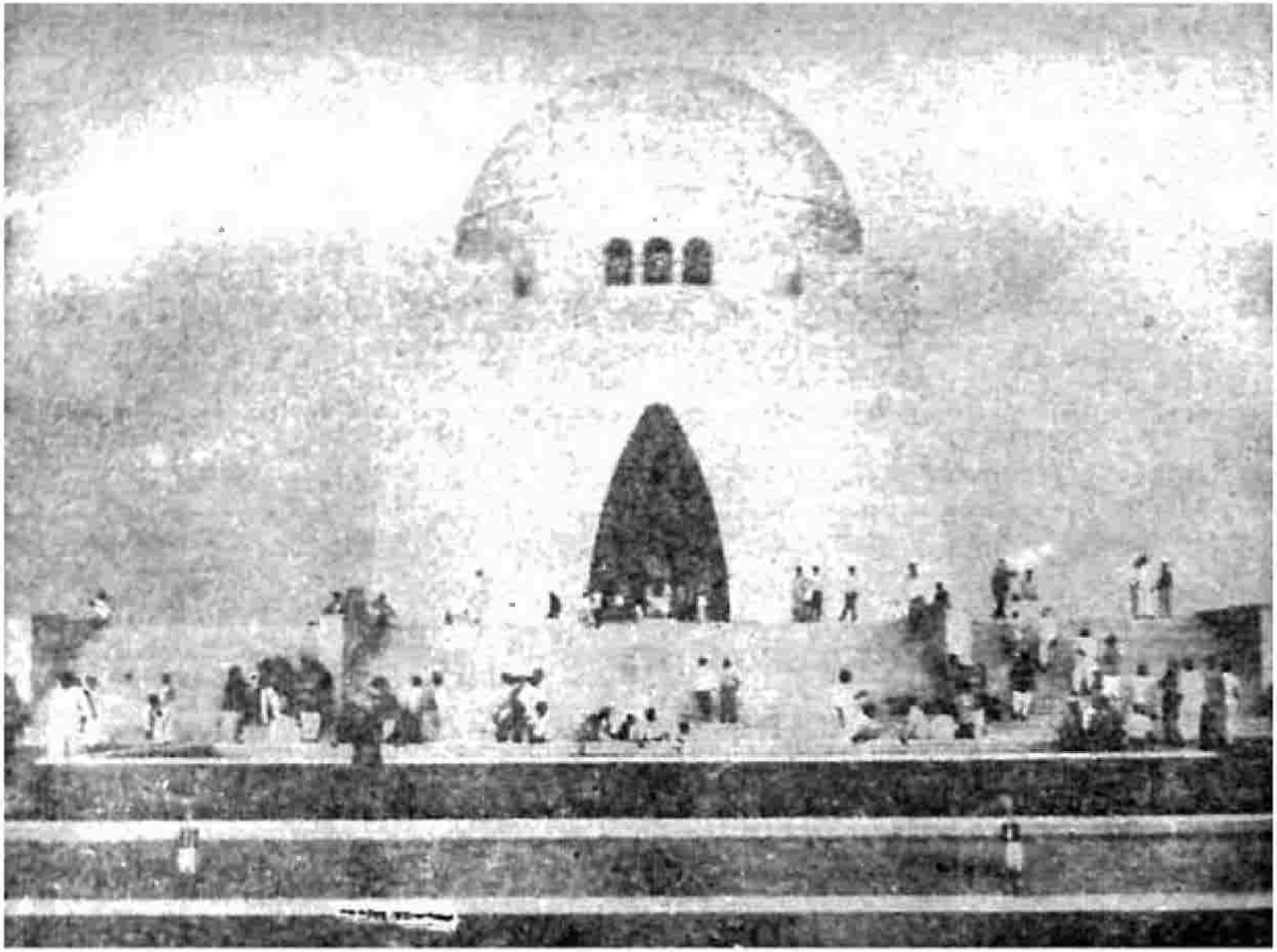

کراچی : ضریح « محمد علی جناح » مؤسس پاکستان

لونه سمني يبدو كأن كل مساحاته قطعة واحدة . والجامع يكاد يقول :
أنا أشهد على قوة وزارة الدفاع وجبروتها » .

وهكذا قادتني خطواتي في إحدى الأمسيات إلى الأحياء الشعبية في « كراتشي » حديقة في قلب المدينة . . . مساحة خضراء مقسمة إلى مرتفعات ، ومقاعد ، ومشايات ، والسماء تزحف عليها أجنحة الليل ، وتطارد بقايا السحب ، كتل شفافة اختلطت فيها مساحات ذهبية ، وبنفسجية ، ووردية . . . لوحة تبهر الأبصار . وفي الحديقة الفوانيس الكهربائية تتدلى برشاقة من عمد معدنية كالأعناق . والناس يسيرون عبر الممرات ، أو يجلسون على الحشيش الأخضر ، أو يتامون على ظهورهم يتأملون أنوار النهار المنسجمة . وكل حركة تنم عن الهدوء ، عن التأمل ، عن الاستمتاع باللحظة الطويلة كأنهم يمتصون منها آخر قطرة من السعادة .

وحول الحديقة من كل الجوانب شارع ضيق ، وحارات تتفرع منه . سوق ضخم يبيع الفواكه والخضراوات وأنواعاً مختلفة من الأطعمة المطبوخة . صفوف من الحوانيت الصغيرة ، أو الرفوف المقامة في العراء ، أو العربات الخشبية للباعة المتجولين ، وأوان ضخمة يتصاعد منها البخار ، وصوان ضخمة ترتفع منها أصوات الزيت الساخن ، وروائح السمك واللحم . وآلاف الناس يسيرون .

وعندما تخترق الحديقة أو السوق لا ترى في هذه الأحياء سوى الرجال وعندما تذهب إلى دور عرض الأفلام في كراتشي ، وهي كثيرة ، لا تجد إلا الرجال . ودور العرض هذه متوسطة الحجم ، بسيطة وفي منتهى النظافة وأغلبية الأفلام المعروضة أمريكية ، بل أغلبيتها تتعرض لموضوعات جنسية . وهكذا تجد صورة أخرى من تلك التناقضات التي تهز المجتمعات النامية . . . مجتمع رجالي متزمت يقضي شبابه أغلب أوقات فراغه في مشاهدة الأفلام التي تدق على وتر الجنس .

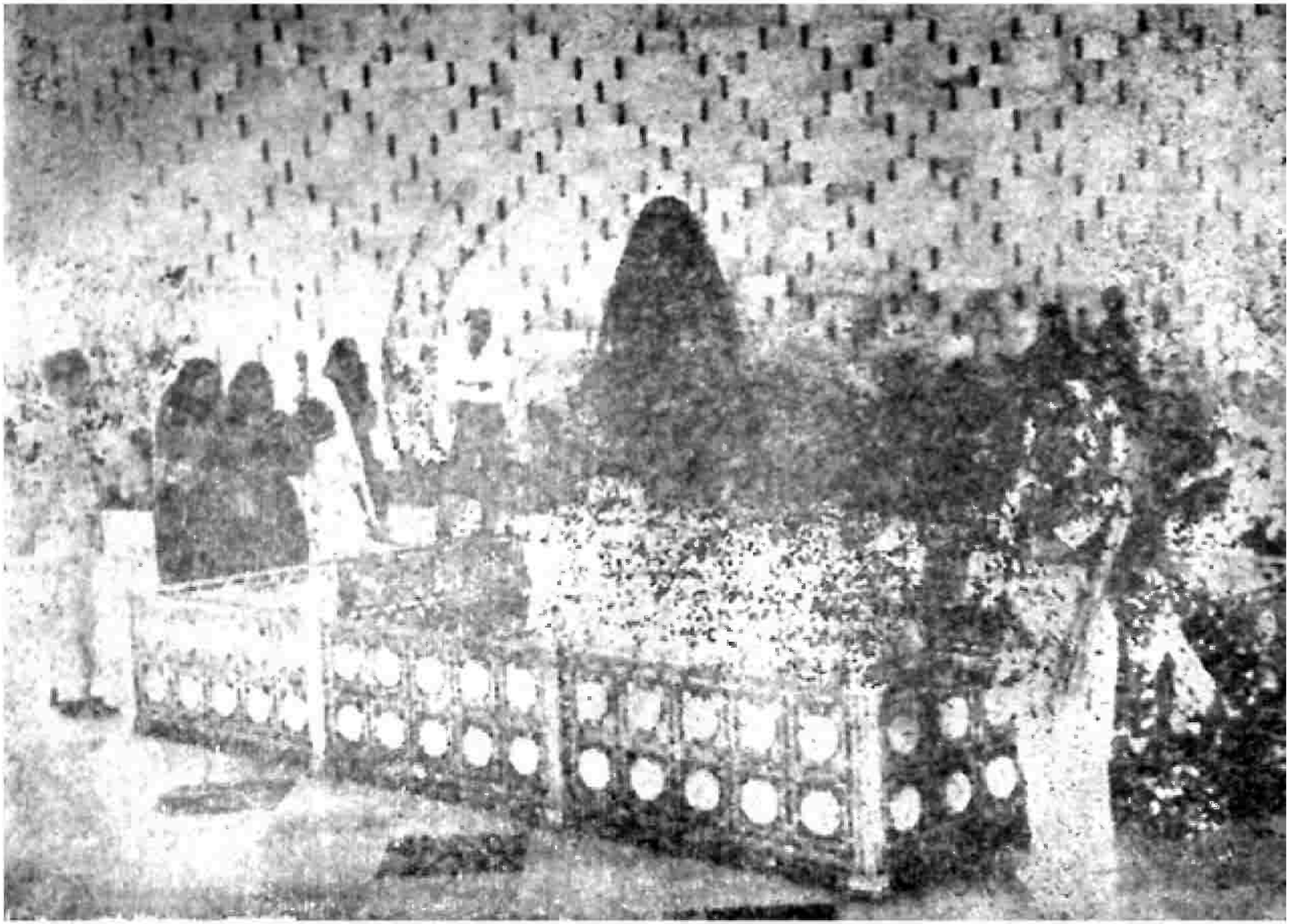

كراتشى : ضريح محمد على جناح من الداخل